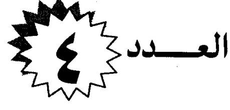
سلسلة رحلات ابن بطوطة

العدد


ابن بطوطة فى
بلاد كسرى وقيصر والتركمات

نوال مهنى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة

المـــؤلـــف : أ. نوال مهنى

تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢

التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيســـى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقـــم الإيــــداع : ٩٩/٢٣٧٨

الترقيـــم الدولـــى : ISBN

977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون به. وفى عصر ابن بطوطة لم يكن الناس

يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمرا شائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى السفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العالم القديم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالها عدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابن بطوطة رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بين

بلد وآخر ولم يشغل نفسه بـــالعمل أو التجـــارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلتـــه دينية اجتماعية ولم تكن مـــن أجــل كشــوف جغرافية أو بحوث علمية. وكـــان عمـــر ابـــن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشـــرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البـــلاد فأكرمـــه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحيــن انتهى من كتابتها أسماها (تحفـــة النظـــار فـــى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبــد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلـــة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعـــل. وكـــان زمـــن الرحلة القرن الرابع عشر الميـــلادى، ويعتـــبر

ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصور الوسيط ولا زالت أخبار رحلته العجيبة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى بلاد كسرى وقيصر والتركمان

فكر صديقنا ابن بطوطة أثناء طوافه فـــى بلاد الله أن يتوجه إلى بلاد الأكاسرة والقياصرة وقد سبق له أن سمع كثيرا عن حضارتها ومــا فيها من العجائب وكان العرب يسمون أصحاب هذه البلاد من فرس وروم بالعجم.

دخل ابن بطوطة بلاد كسرى وهى بـــلاد الفرس عن طريق الخليج العربـــى وأول بلــد لقيها ونزل بها هى جزيرة هرمز ومشى ابـــن بطوطة يتفرج على معـــالم الجزيــرة فــرأى جمجمة كبيرة هى بقايا حوت هائل وتبدو مـــن

بعيد كأنها جبل أو ربوة كبيرة وعيناها كأنهما بابان، فكان الناس يدخلون من أحدهما ويخرجون من الآخر. وشاهد في الجزيرة جبالا من الملح ويسمونه الملح الصخرى أو الجبلى وهو أصلب من الملح الذى يوجد فى ملاحات البحار. وهذا الملح معروف فى العالم باسم الملح الدارانى ويدخل فى صناعة الدواء ويستخرج من المناجم والجبال.

وطعام أهل الجزيرة يقوم أساسا على التمر والسمك وهم يعتقدون أن التمر والسمك من أفضل الأكلات ويقولون هذا طعام الملوك، وعرف ابن بطوطة أنهم يصطادون السمك من

الخليج أمّا التمر فيأتى إليهم من البصرة بالعراق.

وسمع ابن بطوطة عن شيخ صالح فعبر الجزيرة إلى البر وسار أربعة أيام فى قلب الصحراء وهبت عليه رياح السموم التى تهب صيفا على هذه الصحراء القاحلة. وسمع ابن بطوطة ورأى أن الرياح لها صفير مخيف وتبدو حمراء وكأنها نار تلتهب – وعرف أنه من استنشق هذه الرياح أو سقط فيها يختنق وخاصة بالنهار ومن مات مختنقا بها وأسكت أى جزء من جسده خرج معلاً.

فكان ابن بطوطة يتقـــى الريـــاح ويصنــع الاثواب على فمه وأنفه ويتخفى وراء الصخور حتى هدأت الرياح ووصل سالما. وصديقنا ابن بطوطة يتحمل المشاق والمخاطر بصدر رحـب من أجل زيارة الشيوخ والأولياء والتبرك بـــهم ولذلك بعد أن زار الشيخ قـــرر التوجـــه إلـــى شيراز وهى مدينة فارســـية جميلـــة تشـــتهر بصناعة السجاد الفاخر.

والغريب أن ابن بطوطة فكر قبل كل شىء فى زيارة قاضى المدينة وكان قد سمع عنه من قبل واسمه فريد الدهر ويلقبونه بالإمام وقطـــب الأولياء. وكان شيخا عجوزا وكـــان الســـلطان يعظمه ويقدره وحينما زاره ابن بطوطـــة رأى

رسول السلطان يدخل عليه وينحنى ويقبل قدمه وكان الأمير رسول السلطان قد أتى ومعه عـدد كبير من الحرس والعبيد ولكنه دخل إلى مجلس الشيخ منفردا تكريما له.

وطالت إقامة ابن بطوطة فى شيراز وأحب هذا البلد النظيف الجميل ذا الفخامة، وزار قـبر الشاعر الفارسى السعدى وكـان أشـعر أهـل العجم فى زمانه وكانت له زاوية قصدها ابـن بطوطة بداخلها بستان رائع وتقع علـى نـهر ركن أباد وبداخل الزاوية أحواض من المرمـر يقصدها الناس لغسل ملابسهم وبالزاوية عـدد من الخدم يطبخون ويجهزون الموائد لكل مـن يدخل الزاوية. فكان الغريب يقيم بالزاوية فيأكل

ويستحم ويغسل ملابسه ويلقى كل الترحيب من العاملين بها. وكانت هذه الزاوية محـل إقامـة ابن بطوطة فى شيراز وأهم الأطعمـة التـى أعجبت ابن بطوطة الهريسة المصنوعـة مـن اللحم والسمن وتؤكل بالرقـاق. وسـأل ابـن بطوطة عن طريقة صنعها ومكوناتـها حتـى يمكنه طبخها وأكلها بعد عودته لبلاده.

وبلاد الأكاسرة الفرس هى دولـة إيـران الحالية وكانت من الممالك القديمة ولها حضارة عظيمة، وقبل دخول الإسلام عليها كان أغلـب أهلها من المجوس وكانوا يعبدون النار وكـان مليكهم يلقب بكسرى وقد دارت الحروب بيـن الفرس والعرب حتـى تمكـن العـرب مـن

الانتصار عليهم بعد معركة القادسية بقيادة البطل العربى سعد بن أبى وقاص، وبعدها دخل الفرس فى الإسلام وأصبحوا جزءًا من الدولة الإسلامية. وظهر منها شعراء وكتاب وعلماء كبار كان لهم شأن فى الدولة الإسلامية مثل إبن سينا وأبو الفرج الأصفهانى وعمر الخيام والسعدى وابن المقفع وبشار بن برد والبخارى.

وحين دخل ابن بطوطة بلاد فارس كانت خاضعة لحكم التتار شأن جميع البلاد المجاورة وملوك التتار أو المغول من أبناء جنكيزخان كانوا أعداء للحضارة يدمرون ويقتلون وكانوا جبابرة متوحشين ولكن بعد دخول أحفادهم فى

الاسلام صلح إسلامهم وأصبحوا من المدافعيـن عنه.

وتابع ابن بطوطة سيره بعد ذلك فوصـــل إلى مدينة أضاليا. وهى مدينة كبيرة مؤلفة مـن عدة أقسام ولكل طائفة قسم أو حى خاص بـــها وعليه سور وله أبواب تقفل ليلا. وتفقّــد ابـن بطوطة أسواق المدينة وأكثر ما أعجبـــه هـى الفاكهة وخاصة الليمون الكبير الحجـم الحلـو المذاق الذى يسمى ليمـــون اضاليـا وكذلـك المشمش ويسمونه قمر الدين وله نواة وبها لوز حلو وهم يجففونه ويصدرونه لمصر وتكثر فـى اضاليا البساتين والحدائق، ولكن أكـثر شـىء

أعجب به ابن بطوطة هو نظام الأخية (ومفردها أخى) وهم جماعة من الفتيان نذروا أنفسهم لحماية الفقراء والغرباء وقضاء حوائج الناس وتوفير الطعام والشراب للغرباء وغير القادرين ومطاردة اللصوص والوقوف فى وجه رجال الحكومة الظالمين. وهؤلاء الأخية أو الفتيان من أهل الحرف المختلفة ولهم كبير يرأسهم وهم عادة من الشباب الزاهد المتصوف كما أن لهم زوايا مفروشة ومجهزة يجتمعون فيها ويستضيفون الغرباء، ثم يرقصون رقص الدراويش مع الأغانى الدينية.

ورأى ابن بطوطة هذا النظام فــــى معظـــم بلاد الترك والروم وهو نظام اجتماعى نشأ مــن الشعب لمساعدة الناس وحمايتهم من الظالمين.

ظل ابن بطوطة ينتقل فى بلاد الترك بآسـيا الصغرى وهو يقيم فـــى المــدارس والزوايـــا وشاهد معالم هـــذه البـــلاد ويقـــابل الشـــيوخ والسلاطين والغريب أن ابن بطوطــــة يعيــش أحيانا مع البسطاء والفقراء وينزل فى أى مكان يجده. ثم نراه يقابل الملوك والسلاطين داخـــل قصورهم ويجلس معهم على موائـــد الطعـــام ويتحدث إليهم عن قرب.

وسأل ابن بطوطة عن السلطان العثماني فأخبروه أنه فوق أحد الجبال بالمصيف فذهب اليه ابن بطوطة، وقابله فرحب السلطان به وأهداه خيمة على شكل قبة ولها فتحة من أعلى لدخول الهواء والضوء. وبقى ابن بطوطة بصحبة السلطان فى هذا المصيف ثم نزل السلطان من الجب إلى القصر ومعه الحاشية وذهب معهم ابن بطوطة وكان قصر السلطان فى غاية الروعة فجميع أعمدته مزينة بالذهب والفضة وكذلك الشمعدانات والثريات المعلقة للزينة والإضاءة وجميع المفروشات من الحرير والقطيفة المزينة بالذهب.

وجلس ابن بطوطة مبهورا بفخامة القصـــر وقُدم له صنف من الحلوى عبارة عن محلـــول الخلاب والليمون وبه كعـــك صغـــير مقســـوم ومغموس فى المحلول. وقد وضع فى أطبـــاق من الذهب والفضة ومعه ملاعق مـــن الذهـــب والفضة كذلك.

ورأى ابن بطوطة أن نساء الترك يركبـــن الخيل ويعرفن الفروسية. ويتمتعن بحرية كبيرة ويعملن فى كل الحرف والصناعات اليدوية.

وعلم ابن بطوطة من أحـــاديث النـــاس أن الخاتون أو الهانم زوجة أمـــير المدينـــة هـــى

الحاكمة الفعلية للمدينة ويقصدها الناس وقـــت الحاجة.

وسأل صديقنا ابن بطوطة عن بلاد القـــرم فعرف انها تقع فى شمال البحر الأسود فحـذره أصحابه من خطورة الرحلة ولكنه صمم علـــى المغامرة.

وبعد انتظار عدة أيام على الشاطئ جــاءت سفينة وركب ابن بطوطة ومعـــه عــدد مـــن الركاب وسارت السفينة بهم فى اتجاه الشـــمال ثم هاج البحر فعادت السفينة إلى الشاطئ حتـى هدأت الريح وبدأت السفينة سيرها عن جديـــد وعبرت البحر واقتربت عن الســـاحل ولكــن

ركاب السفينة شعروا بالخوف من هذا المكـان، ويبدو أن ربان السفينة تشابهت عليه الموانـــى وضل الطريق فرفض جميع الركاب الـــنزول وقرروا العودة مع السفينة إلاّ صاحبنـــا ابـن بطوطة الذى غامر بنفسه ونزل على الســاحل بمفرده.

وسارت السفينة بعيدا ووقف ابن بطوطـــة وحيدا على شاطئ غريب لا يعرف أين هو ولا أين يذهب. وراح يسير قرب الساحل حتى وجد بعض الناس فعرف منهم أنه فى دولة القطيـــع الذهبى وهى واحدة من أربع دول يحكمها خـلن المغول، وقد انقسمت دولة المغـــول الكـبرى

وكانت دولة واسعة إلى هذه الدول الأربع وكـل دولة على حدة تسمى خانية. وهى آخـــر دول خانات المغول جهة الغرب.

وعرف ابن بطوطة ان أسماء دول المغـول الأربع بخلاف دولة القطيع الذهبى الذى نـــزل بها من دولة القطيع الأزرق ودولـــة القطيـــع الأبيض ودولة القطيع الأسود.

وسأل ابن بطوطة عن سبب هذه الأســـماء الغريبة فعرف أن قبائل المغول كانت تصنـــع خيامها من أصواف أغنامها وكل دولـــة لـــها قطعان من الأغنام لها لون مميز، ولذا كان أهل القبائل من الرعاة يسمون دولتهم حسب لـــون

قطعانهم من الأغنام ولون خيامهم المصنوعة من أصواف هذه الأغنام.

ترك ابن بطوطة الرعاة بعد فترة قصيرة وتوجه إلى ساحل بحر ازوف فوجد على الساحل مدينة جميلة رائعة تسمى باسم أزوف وسمع المنادى يعلن عن حفلة فى قصر أمير المدينة ويدعو الكبراء من الجند والقضاة والتجار والأعيان لحضور الحفلة فقرر ابن بطوطة أن يذهب لحضور هذه الحفلة فى قصر الأمير. ولما جاء موعد الحفلة ذهب إلى القصر وكان الأمير موجودا بالطبع واسمه محمد خواجة الخوارزمى فقدم له ابن بطوطة نفسه

وعرّفه بأنه فقيه ورحالة مــن بــلاد المغــرب فرحب الأمير به وأمره بالجلوس.

وبدأت الحفلة بتقديم أصناف الطعــام مــن اللحوم والطيور والهريسة والرقاق وأصنـــاف الحلوى والفاكهة ثم بدأ المنشدون فــى قــراءة القرآن بترجيع عجيب، وبعد ذلك بدأ الغنــاء ــ والغناء العربى عندهم اسمه القول ــ أمّا الغناء التركى والفارسى فاسمه الملمح وقضى صديقنا ابن بطوطة ليلة جميلة فى قصر الأمير، وبعــد انتهاء الحفلة خرج مع الناس وراح يبحث عــن مكان يقيم به فدلوه على مدرسة قريبة ــ وأراد الذهاب إليها راكبا فاكترى حصانا من الخيــول الموجودة فى الشوارع وركبها ــ ولاحـــظ أن

خيول هذه البــــلاد صغــيرة الحجــم ضعيفــة الاحتمال وقدر ثمنها بدينار واحد مغربى وهــى كثيرة جدا فى هذه البلاد.

وعرف أن سلطان القطيع الذهبــى محمــد أوزبك يقيم فى مدينـــة تورخــان (اســترخان الحالية) فذهب للتعرف عليه ومقابلته وعـــرف أن زوجة السلطان تريد الذهاب إلى بيت أبيـــها قيصر الروم حتى تلد عنده ثم تعود.

فطلب ابن بطوطة من السلطان السماح لــه بمرافقة الركب ليزور بـــلاد الــروم ووافــق السلطان ومنحه الخيــول والملابــس والنقــود وأهدته السلطان والأميرات سبائك من الذهـــب وعدد من الفراء الثمين ــ وعرف ابن بطوطــة

أن أهل هذه البلاد يصطادون حيـــوان المنـــك وهو صغير ويحصلون منه على هذا الفـــراء، وفراء المنك أبيض ناصع وهناك حيوان آخـــر اسمه السمور ويمتاز فـــراؤه بـــاللون الأســـود الفاحم وحمل ابن بطوطة كل هذه الهدايا مـــن الفراء والذهب والخيول ومضـــى فـــى ركـــب زوجة السلطان إلى بلاد الروم فى هيئة فخمـــة وكأنه أحد أكابر الدولة وبعد سفر طويل وصـــل الركب إلى القسطنطينية وخرج أهل الســـلطانة وفـــى مقدمتـــهم إخوتـــها وأقيمـــت الحفـــلات والاستقبالات للضيوف.

ترك ابن بطوطة الركب وخرج لمشـــاهدة المدينة الكبيرة وأول شيء لفت نظره هو كنيسة

أيا صوفيا وهى كنيســة عظيمــة ذات أبــراج وزخارف، ويقال إن الرسام مايكل انجلو وهــو من فنائى عصر النهضة قضى ثمانى ســنوات نائما على ظهره فوق سقالة حتى أتــم رســم سقف الكنيسة وفيه صور الإنسان مــن بدايــة الخليقة إلى الطوفان.

ومدينة القسطنطينية تنقســم إلــى قســمين وبينهما نهر عظيم ـ يعبرونه بالقوارب والقسم الشرقى يسمى اصطامبول وبه أسواق عظيمــة وأهل كل صناعة لهم سوق خــاص، والقســم الشرقى يسمى الغلقة. ويقع قصر السلطان فــى القسم الشرقى. وكــانت القســطنطينية منيعــة وعليها سور عظيم من ناحية البحــر وكــانت

عاصمة الدولة الرومانية الشـــرقية أى الدولـــة البيزنطية حينما زارها ابن بطوطة.

وبعد ذلك فتحها السلطان التركى العثمـــانى محمد الفاتح وجعلها عاصمة للدولة العثمانيـــة وبنى بها المساجد والقصـــور وكذلـــك فعـــل السلاطين العثمانيين الذين حكموا الامبراطورية الإسلامية العثمانية بعده وأشهر معالمها اليـــوم جامع السليمانية الذى بناه الســـلطان ســـليمان القانونى والسوق المغطى أو السوق المســـقف وهو سوق عظيم مسقوف بالحديد المصفح ولـــه أبواب كبيرة ضخمة وبه أعظم محلات الذهـــب فى تركيا ومن معالمها الكوبرى المعلق الـــذى يصل قسمى المدينة ويصل بين آسيا وأوربـــا،

فالقسم الشرقى من المدينة يقع فى آسيا والقسم الغربى يقع فى قارة أوروبا.

وأعجب ابن بطوطة كثيرا بأسواق الحرير والذهب ولاحظ إقبال النساء على الشراء من الحرير والعطور والذهب وبعد أن تجول فى الأسواق والشوارع وزار معالم المدينة قرر الرحيل إلى بلد آخر.

☆ ☆ ☆